IUGJHR
Vol 27, No 02, 2019, pp 188-212

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (2017-09-28)، تاريخ قبول النشر (2018-02-12)

الحياة السياسية والمظاهر الفكرية في الدولة العثمانية خلال عصر الزنابق (1718-1730م/ 1130-1143هـ)

د. ايمان عبدالرحمن فرحان هياجنة [1,*]
د. نوال عبدالرحمن محمد الشوابكة [1]

[1] قسم اللغة العربية - الجامعة الأردنية - الأردن

[*] البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: e.hayajneh@ju.edu.jo

الملخص:

عصر الزنابق (لاله دورى- Lal e Devri) في تاريخ الدولة العثمانية، أطلق على آواخر عهد السلطان أحمد الثالث والذي امتد عهده من عام(1703م)الى عام(1730م) / (1115-1143هـ)، ووزيره الأعظم إبراهيم باشا. وسبب التسمية ترجع الى الاهتمام الكبير بزراعة زهرة الزنبق والتي أحبها الناس من مختلف طبقات المجتمع العثماني بشكل ملفت للانتباه.

وتنبع أهمية الدراسة، بتقصي الأحداث السياسية والفكرية التي مرت بها الدولة العثمانية خلال هذة الفترة الممتدة من عام(1718م) الى عام (1730م)والتي عرفت في تاريخ الدولة العثمانية بعصر الزنابق.

كلمات مفتاحية: السلطان أحمد الثالث، الوزير الأعظم ابراهيم باشا، عصر الزنابق، ثورة باترونا خليل، الانكشارية.

(The Political Life and the Intellectual Aspects in The Tulip Era (LaleDevri 1718-1730 AD (1130-1143AH)

Abstract

The Tulip Era of the Ottoman Empire was the name given to the period of Sultan Ahmed III's reign (1703-1730 AD (1115-1143 AH)) with his Prime Minister Ibrahim Basha. The reason for this name was the great and remarkable interest during that period in growing tulip flowers, which people from different levels of the Ottoman society were fond of, and poets chanted about tulips until there became what is known as Tulip literature.

The aim of this study is to explore the events that the Ottoman Empire has endured during this period from 1718 till 1730 AD, which was known in the Ottoman history by the Tulip Era (LaleDevri).

Keywords: Sultan Ahmed III, Prime Minister Ibrahim Basha, Tulip Era, PatronaHalil insurrection, Janissaries.

مقدّمة:

يلاحظ المتتبع للأحداث التي مرت بها الدولة العثمانية، أن عهود السلاطين العشرة الأوائل (1299م - 1566م)، قد مثلت فترة الصعود والازدهار. لكن هذا لا يعنى أنها لم تتعرض خلال هذة الفترة لانتكاسات خطيرة كادت أن تفتت الدولة وتقضي على أساسها[1].غير أن الدولة العثمانية تمكنت من مواصلة تقدمها العسكري وازدهارها العمراني.[2].

فعهد السلطان سليمان القانوني (1520م - 1566م) وهو آخر العشرة الأوائل، هو عهد الفتوحات الكبيرة، والنظم والقوانين. وأصبحت الدولة العثمانية محوراً للسياسة العالمية، وبرزت ملامح حضارتها الإسلامية الشامخة من خلال مؤسساتها العسكرية[3]. ومنذ أواخر القرن 16م/ 10هـ وخلال القرن 17م/ 11هـ، بدأت تظهر عوامل الضعف والانهيار في مختلف أجهزة الدولة. ومن جهة أخرى، فإن أوروبا كانت تتقدم بخطى واسعة نحو التطور التقني والاقتصادي والاجتماعي، وتحقق إنجازات في هذا المضمار أسرع نسبياً مما كان يحققه العثمانيون، في الوقت الذي انشغلت فيه الدولة بحل مشكلاتها الداخلية[4].

في الوقت الذي كانت أوروبا تتقدم في مجالات العلوم والتقنيات، كان العثمانيون يشعرون بالارتياح بالتفوق العسكري لديهم، وينظرون الى ما كان يحدث في أوروبا من تطور نظرة تهاون، غير مدركين لما يمكن أن ينتج عن هذة التغيرات من آثار سلبية على كيان الدولة العثمانية. فقد ضعف اهتمام السلاطين بمتابعة شؤون الدولة خلال القرنين 17م و18م، لاسيّما وأن عدداً من هؤلاء السلاطين قبل أن يتولوا الحكم كانوا سجناء في القصر العثماني، مما انعكس سلباً على سلوكهم خلال توليهم سدة الحكم، ومنهم من كان شديد الإسراف، والبعض الآخر شغل بالقنص والشراب، وأخذ الرشوة وبيع المناصب، أمّا نساء القصر فقد عُرفن بتأثيرهن القوي على السلاطين. وكثيراً ما كان يصل الى العرش صبية صغار، أو سلاطين حكموا لفترة قصيرة[5].

رافق عوامل الضعف في أجهزة الدولة ثورات الانكشارية وتدخلها في قتل وعزل السلاطين وتنصيبهم، وبرزت حركات الانفصال، وقوي أمراء الأطراف إبان القرن 18م ، وأصبحت مؤسسات الدولة عامة بالفساد. ولم يعد التركيب الداخلي لفئات المجتمع، ولا نمط الحياة، ولا الجمود الذي اصبحت بها المؤسسات العثمانية، بقادر على الوقوف في مواجهة عصر التقدم في مجالات العلوم والتقنيات[6].

كما أدت الهزائم العسكرية التي تعرضت لها الدولة العثمانية، وكان أبرزها الهزيمة التي تعرضت لها في حربها مع النمسا عام 1697م والتي اسفرت عن عقد معاهدة كارلوفجه (Karlowitz)– كارلوفجه مدينة في

---

(1) خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي (دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر)، دار الطليعة، بيروت، ص17

(2) سيد مصطفى، الاصلاح الثماني في القرن الثامن عشر (نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطنية 1803م) تحقيق خالد زيادة، المؤسسة العربية، بيروت، 1979م،ص 9- 10

(3) خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الإنحدار، ترجمة محمد.م.الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ص 9-10، سيد محمد السيد محمود،تاريخ الدولة العثمانية (النشأة والازهار "وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة "، مكتبة الآداب، القاهرة، 2007، ص 249

(4) سيد محمد السيد محمود، ص 380

(5) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، 2013م، ص248- 249

(6) المرجع السابق، ص 248- 249

صربيا حالياً- عام 1699م/ 1111هـ، الى خسارة الدولة أراضٍ شاسعة من ضمنها المجر، كرواتيا وسلوفانيا. والهزيمة الأخرى انتهت بمعاهدة بساروفجه(Passarowitz)- مدينة في شمال صربيا- عام 1718م، والتي تخلت بموجبها عن بلغراد وأراض حول الدانوب للنمسا، فأيقن العثمانيون مدى تخلف وتراجع أجهزتهم العسكرية، فأصبحت فكرة الانفتاح على التقدم الأوروبي منذ ذلك الوقت فكرة ثابتةلدى المتنورين العثمانيين من بينهم السلاطين والوزراء[7].

وتحت تأثيرهذه الهزائم العسكرية التي كانت بداية التراجع العثماني في أوروبا الشرقية ، اعتلى السلطان أحمد الثالث سدّة الحكم سنة 1703م، حيث سعى منذ تسلمه العرش إلى تحقيق السلام مع الدول المحيطة به. وكان وزيره الأعظم إبراهيم باشا يتفق معه بسياسة السّلم وبضرورة الانفتاح على الغرب، وخلال هذه الفترة شهدت اسطنبول عهداً من ازدهار الفنون والآداب والشعراء، وبناء القصور الفخمة، وسميت هذه الفترة بعصر الزنابق (1718 مـ - 1730 م) الذي هو محور الدراسة.

وإذا كانت الهزائم العثمانية في نهاية القرن 17م وبداية القرن 18م، قد أثبتت لهم بأن الانفتاح على أوروبا أمر لا مفر منه، فإنّ المؤثرات الأوروبية قد دخلت الى داخل الدولة العثمانية قبل ذلك التاريخ بوقت قصير، إذ لم يكن جميع العثمانيين بغافلين عن التقدم الأوروبي.

مشكلة الدراسة:

لقد شكلت الحياة السياسية والمظاهر الفكرية في الدولة العثمانية خلال عصر الزنابق (1718-1730م / 1130-1143هـ) مظهراً هاماً وملمحاً بارزاً في دراسة التاريخ العثماني. إذ نرى من الدراسات السابقة التي حاولت أنّ تتبع تلك الحقبة التاريخية عدم الاهتمام بهذا العصر سياسياً وفكرياً فجاءت هذه الدراسة في محاولة جادة لإبراز شخصية السلطان أحمد الثالث وأثرها في الحياة السياسية والفكرية.

وكان لزاماً على دراستنا هذه أن تجلي جانباً غُفّل عنه.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أنها تسلط الضوء على جانبٍ ظل طويلاً هامشياً مغفلاً، ألا وهو أثر عصر السلطان أحمد الثالث (عصر الزنابق) في الحياة السياسية والفكرية – كما لخص في مشكلة الدراسة – كما تضيف الى الدراسات السابقة ذات الصلة، وتكمل جهوداً سابقة في دراسة عصر السلطان أحمد الثالث في تقصي الاحداث السياسية والفكرية التي مرت بها الدولة العثمانية خلال هذه الفترة الممتدة من عام 1718 – 1730م (عصر الزنابق)، لأنها تسعى الى أن تضيف شيء جديداً الى المكتبة التاريخية المختصة في التاريخ العثماني، التي ما تبرح بحاجة دوماً الى الاضافة والزيادة.

[7] خالد زيادة، 29- 30، سيد محمد السيد محمود، ص 359- 360، وليد العريض، تاريخ الدولة العثمانية "التاريخ السياسي والأداري ودراسات تاريخية "، دار الفكر،عمان، 2012 ص 112 -113، روبير مانتران، تاريخىالدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ج1، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993 ص374- 379

أسئلة الدراسة:

تقوم الدراسة على طرح الأسئلة الآتية:

1. هل شكلت الانعكاسات السياسية لعهد السلطان أحمد الثالث حافزاً سياسياً وفكرياً للتجديد والتفوق؟
2. ما نقاط الالتقاء والشبه بين عصر الزنايق في الدولة العثمانية والمجتمع الأردني؟
3. هل كان عصر الزنابق أنموذجاً يقتدى به؟

منهجية الدراسة:

تم استخدام عدة مناهج منها التاريخي والمنهج الوصيفي التحليلي في دراسة هذه الفترة الزمنية.

المبحث الأول

الانعكاسات السياسية لعهد السلطان أحمد الثالث على عصر الزنابق

ولد السلطان أحمد الثالث في 3 رمضان سنة 1083هـ الموافق 31 ديسمبر سنة 1673م[8]، والده السلطان محمد الرابع وأمه رابعة أمة الله كلنوش Rabia Gulnus Emetullah[9]. السلطان الثالث والعشرون من سلاطين الدولة العثمانية، وقبل أن يصبح شهزاده كان يعيش في قصر الطوب كابي (topkapi) وبعد ذلك انتقل إلى قصر أدرنة (Edirne) [10].

كان السلطان أحمد الثالث شاعراً، موسيقياً، خطاطاً ماهراً، ذا ثقافة عالية، ويجيد الرمى بالسهم، فقد حصل على إجازة في خط الثلث والنسخ من الحافظ عثمان أفندي. ومن بين أساتذته يمكن ذكر شيخ الإسلام فيض الله أفندي، والإمام السلطاني إبراهيمأفندي، وشيخ الإسلام بورصه لى محمد أفندي، وسيد محمد أفندي قاضي العسكر[11].

وعلىإثر مايعرف بواقعه أدرنة، والتي أدت إلى خلع السلطان مصطفى الثاني في سنة 1703م/1115هـ، قتل شيخ الإسلام فيض الله أفندي؛ حيث كانت الذريعة الكبرى لهذه الحادثة مسألة تأخر رواتب الجند، وخاصة بعد الهزائم العسكرية العثمانية على الجهة الأوروبية، إضافة إلى إقامة السلطان في أدرنة، مما خلق لدى الجنود استياءً كبيراً؛ حيث هددت مصالح الانكشارية العظمى، فبدأت ثورة 1703م في

---

[8] محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، مكتبة الآداب، 2009، ص142- 143، عبد الرحمن شرف، تاريخ دولت عثمانية، م1، مطبعة باب عالي، اسطنبول 1315هـ ، ص 131، يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق، دار البصائر، 1985، ص123.

[9] M. Cagatay Ulucay, Padisahlarin kadinlari ve Kizlari,Ankara Turk Tarih Kurumu, 2001, p. 79, Metin Hakki Verdi , Nevsehirli Damat Ibrahim Paşa Yazilan Lale Devri, Ankara, 2012, p. 29

[10] Hakki Verdi , p. 29

[11] يلماز أووزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، م1، مؤسسة فيصل، اسطنبول، 1988، ص 594. Hakki Verdi , p. 29

اسطنبول التي أشعلها الانكشارية، وانضم إليهم الأهالي من العاطلين عن العمل، فتحركوا من اسطنبول إلى أدرنة، فقتلوا شيخ الإسلام فيض الله أفندي، ونفوا أولاده، وعزلوا أعظم رجال الدولة واستبدلوهم بمن أرادوا، وتم خلع السلطان مصطفى الثاني، وجلس مكانه على العرش في أدرنة الشهزاده أحمد الثالث[12].

ويقول أحمد جودت في ذلك :" فظهرت على إثر ذلك واقعة أدرنة، وكانت من الحوادث المفجعة التي لم يشاهد ولم يسمع بمثلها في الدولة العلية وذلك سنة 1115هـ. . "[13].

وهكذا تولى عرش السلطنة السلطان أحمد الثالث (1703م/1115هـ)، وفور وصوله إلى أسطنبول، كان أول عمل قام به هو التخلص من الذين قاموا بالثورة ضد أخيه السلطان مصطفى الثاني بن محمد الرابع؛حيث أمر بقتل كافة رؤوس الانكشارية الذين خانوا أخاه[14].

تعرضت الدولة العثمانية في ظل حكم السلطان أحمد الثالث إلى أحداث هامة على الجبهة الأوروبية تتمثل في حروبها مع، روسيا، والنمسا، ومع الدولة الصفوية على الجبهة الشرقية.

وفي أثناء مطاردة قيصر روسيا بطرس الأكبر لملك السويد دخل الأراضي العثمانية، وقد نبه ملك السويد السلطان أحمد بما يتوقعه من الدولة الروسية من الضرر والشر للدولة العثمانية، واضطر السلطان أحمد الثالث إلى إعلان الحرب على روسيا، وإعطى قيادة الجيش إلى بلطجي محمد باشا الصدر الأعظم، وخرج الجيش من اسطنبول في سنة 1711م/1123هـ ، وتمكن الصدر الأعظم بلطجي محمد باشا من العثور على جيش القيصر على نهر بروت (Prut)- نهر في شرق أوروبا يشكل حالياً الحدود بين رومانيا ومولدافيا- وحاصره؛ لذا عرفت هذه الحرب بحرب بروت، وحاول القيصر منع الجيش العثماني من عبور نهر بروت؛ فقام الجيش العثماني ببناء ثلاثة جسور والعبور بسرعة إلى الضفة الشمالية من بروت[15]وأجبر العثمانيون الروس على الفرار، وتعقبوهم وهزموهم شر هزيمة[16].

وأعلن بطرس الأكبر موافقته على جميع مطالب الوزير الأعظم، وربطه بشروط شاقة لا يمكن لدولة أن تقبلها، فمنها :- عدم تدخله في شؤون الدولة العثمانية، وأن يرد قلعة أزاق- قلعة قريبة من البحر الأسود تنازلت عنها الدولة العثمانية لروسيا بعد الحرب الروسية التركية (1768-1774م)- وأن لايكون له سفير في الآستانة، وأن يتنازل عن مقام سائر الملوك، فألجاته الضرورة إلى قبول هذه الشروط القاسية [17].

يعلق أحمد جودت باشا في مؤلفه على الوزير الأعظم بلطجي محمد باشا واصفاً إياه بقوله :" وكان السردار (القائدالأعلى) المشار إليه صاحب حيل ودهاء، دقيق الفكر في أعماله وحركاته، حتى أنه نال مسند

---

[12] محمد فريد بك، ص 142، أوزتونا، م1، ص 588 - 590، أحمد جودت باشا، دلتلو أحمد جودت باشا بن اسماعيل، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي، م 1، بيروت، 1308، ص 62 - 64، عبد الرحمن شرف، تاريخ دولت عثمانية، م1، مطبعة باب عالى، اسطنبول 1315هـ، ص 131- 132، روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993، ص 412- 414. Hakki Verdi , p. 29

[13] جودت، تاريخ جودت، م1، ص 64.

[14] أوزتونا، م1، ص 594. Ismail hakki Uzuncarsili, Osmanli Tarihi 5. cilt, Ankara ,Turktarih kurumu,p. 40- 41

[15] Uzuncarsili , c. 5. p. 76-77 . جودت باشا، م1، ص64-65، أوزتونا، م1، 595، مانتران، ج1، ص40، محمد فريد بك، ص143- 144، عبد الرحمن شرف، ج1، ص132 - 133

[16] جودت باشا، م1، ص 65. ,Uzuncarsili c. 5,p. 83

[17] Hakki Verdi , p. 30. Uzuncarsili c. 5. p. 84-85 اوزتونا، م1، ص 597

الصدارة العظمى بما أجراه من الدسائس الكثيرة، ثم لما وقف حضرة السلطان أحمد خان على حقيقة حاله أعرض عنه وعزله. غير أنه لما ظهرت، أخيراً، حوادث روسيا واسوج (السويد)، اقتضت المصلحة توليته مقام الصدارة مرة ثانية، فأحسن فيها العمل، وتغلب على ذلك الرجل كثير الحيل وهو بطرس الأكبر، وكان بإمكانه محو عسكر الروس عن آخره. ولكنه لم ير من الحكمة تتبع أثر الأعداء الميؤوسين الذين قبلوا بشروط هذا الصلح، فرضي بالظفر الذي وقع له، وقنع به قناعة مبينة على قاعدة الحزم والاحتياط وشعار المروءة، فكان من ذلك أن بعض المؤرخين نسبه إلى الغفلة..." [18].

ويشير أحمد جودت إلى أن رجال الدولة في اسطنبول كانوا لايثقون بالوزير الأعظم بلطجي محمد باشا، فعملوا على عزله مدعيين أن الفرصة كانت مواتية للقضاء على الجيش الروسي عن آخره، وادعوا أيضاً أنه أخذ رشوة من روسيا قبل الصلح(19). ورأى السلطان أحمد الثالث أنه ليس من الصواب عزل الوزير الأعظم بلطجي محمد باشافي مثل هذه الظروف، بل عليهم معاملته معاملة حسنة. ولكن الافتراء فيه قد بلغ مبلغاً كبيراً، بحيث تمكنوا من عزله ونفيه قبل أن يصل إلى اسطنبول. ويشير أحمد جودت أنه كان بريء الذمة من هذه الادعاءات، ففي وزارته الأولى ارتكب كثيراً من الدسائس والفتن، فأصبح كما يقال "الجزاء من جنس العمل"(20).

قام السلطان أحمد الثالث – بعد عزله بلطجي محمد باشا-بتعيين داماد علي باشا، مما جعل قيصر روسيا بطرس الأكبر لا يلتزم بتنفيذ ما جاء من الشروط السابقة الذكر. لهذا أعد السلطان أحمد الثالث حملة بقيادة الوزير الأعظم داماد علي باشا أمرها بالتوجه نحو روسيا، في حين خرج السلطان بنفسه إلى الحرب على رأس جيش وصل إلى أدرنة. فأجبر قيصر روسيا بطرس الأكبر على طلب الصلح، فوقعت معاهدة أدرنة 1713م/1123هـ، واستعيدت أزاك، وانسحب الروس من بولونيا، وحافظ البحر الأسود على وضعه كبحيرة عثمانية، ولم ينجح قيصر روسيا في الوصول إلى المياه الدافئة. وقد أدت معاهدة أدرنة إلى توقف الأعمال العسكرية، وفشل ملك السويد شارل الثاني في حث الدولة العثمانية على شنحرب ضد روسيا، مما جعله يغادر إلى بلاده[21].

أما المواجهة العسكرية الأخرى فكانت مع النمسا والبندقية. ففي سنة 1714م/ 1125هـ ؛ ونظراً لدعم البندقية التمرد في الجبل الأسود، خرج السلطان أحمد الثالث لمواجهة البندقية. وتولى الوزير الأعظم داماد علي باشا قيادة الحملة ، وتمكن من إعادة كل القلاع التي أعطيت لهم بموجب معاهدة كارلوفجة، والاستيلاء على موانىء البندقية الموجودة في كريت، وبعض الجزر الأخرى[22].

وبعد هذا الانتصار الذي حققه العثمانيون على البنادقة، استنجد البنادقة بالنمسا لإعادة ما أخذته الدولة العثمانية منهم، إلا أن الدولة العثمانية رفضت ذلك، وقامت الحرب بين الطرفين في بترفارادين (petervardin)– مدينة حالياً في صربيا-سنة 1716م/1125هـ ، وانتصرت النمسا، وقتل الصدر الأعظم

[18] جودت باشا، م1، ص66
[19] المصدر السابق، ص 66
[20] المصدر السابق، ص 66
[21] أوزتونا، م 1، ص596- 597، محمد فريد بك، ص 144، مانتران، ج1، ص 405 - 406. Uzuncarsili , c. 5. p. 86-89
[22] جودت باشا، م1، ص66 ض67، محمد فريد بك، ص 144، مانتران، ج1، ص406، أوزتونا، م1، ص 598 - 599، Uzuncarsili c. 5. p. 97-98,103-105,Hakki Verdi,p. 30

داماد علي باشا، وسقطت بلغراد سنة 1717م/1129هـ[23]، ثم جرت بعد ذلك مفاوضات حول الصلح بين الطرفين، ورافق ذلك تعيين الدولة العثمانية الوزير الأعظم الجديد إبراهيم باشا، والذي كان من مؤيدى الصلح ؛ فقد كان الصدر الأعظم الجديد إبراهيم باشا مدركاً إمكانيات الدولة العثمانية بقوله:".. فلنجر المصالحة الآن، وبعد تحسين نظام العسكر نأخذ بالثأر من الأعداء، فأنكر العسكر ذلك وقالوا أنهم كانوا قادرين على قتل العدو. وجعل بعضهم يحيل التقصير الواقع في الحرب على بعض سترا لقبائحهم. " [24]

كما يشير جودت باشا إلى الوضع التي كانت تمر به الدولة العثمانية،فقد كان الفشل والخسارة يزدادان يوماً بعد يوم، بالإضافة إلى الفشل أيضاً في تعيين القائد الأعلى لحرب النمسا، وعدم حماس الجيش العثماني للقتال، والفساد والاختلال في المعسكرات، فأصبحت الحرب غير ممكنه بعسكر غير منتظم. وحينما طلبت النمسا إجراء الصلح، ونظراً للظروف السيئة التي كانت تمر بها المؤسسة العسكرية، كان الوزير الأعظم الجديد أكثر ميلاً لانعقاد الصلح[25].

وعقد الصلح مع النمسا والبندقية في سنة 1718م/1130هـ والذييعرف بصلح بساروفجة Pasarofca، وهي المفجعة التي وقعت عليها الدولة العثمانية بعد كارلوفجة. وبموجب صلح بساروفجة، انتزعت النمسا بلغرادوأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق،وبقيت سواحل دالماشيا (شرق الأدرياتيك) للبندقية، ورجعت بلاد المورة للعثمانيين. كما أتاح الصلح لرجال الدين الكاثوليك استرجاع دورهم في الدولة العثمانية، مما أتاح لهم وللنمسا الفرصة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية باسم حمايتهم، وعلى حرية التجارة لصالح تجار الدول الموقعة على المعاهدة. [26]

ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا تجديد المعاهدة التي كانت بينهم. وفي الحال جاء سفير روسيا إلى اسطنبول وأخذ يكلف الدولة بأمور عنيفة. وهذا نص ما قاله السفير :ـ إننا أكرهنا على صلح سنة حرب بروت بسبب الفشل الذي ألم بنا، فحط ذلك من قدرنا، وأسقط لقب ملكنا من بين جميع الملوك. وبناء على ذلك فإذا لم يجدد لنا الصلح فإننا ننقضه. " [27]

وطالبوا بأن يكون للدولة الروسية سفير في اسطنبول، وأن يكون لقب ملكها كلقب سائر الملوك، وأن تسمح لتجارها بالمرور من أراضي الدولة العثمانية وبيع سلعهم فيها، ولحجاجها التوجه لبيت المقدس وغيره من الأماكن والأديرة المقدسة عندهم بدون دفع أي شيء. فوافق العثمانيون على ذلك، وأضافت على هذه المعاهدة الجديدة 1720/ ه شرطاً وهو تعهد كل من روسيا والبابا بمنع زيادة نفوذ الملك المنتخب ببولونيا على نفوذ الأشراف وغيرهم، وجعل منصبه وراثياً في عائلته. ومنع حصول هذين الأمرين بكل الوسائل الممكنة بما في ذلك الحرب[28].

---

[23] أوزتونا، م 1، ص 599. محمد فريد بك، ص 144- 145، جودت باشا، م1، ص 67، Hakki Verdi , p. 30

[24] جودت باشا، م1، ص68

[25] المصدر السابق، ص 68

[26] Uzuncarsili, c. 5. p. 140- 142, Hakki Verdi ,p. 30، اوتونا، م 1، ص 601، مانتران، ج1، ص406، محمد فريد بك، ص 145

[27] جودت باشا، م 1، 70

[28] جودت باشا، م1، ص70، محمد فريد بك، ص 145

هكذا فإن توقيع هذه المعاهدة من قبل الصدر الأعظم إبراهيم قد فتح عهداً جديداً بعد نهاية الحرب مع البندقية والنمسا، وسوف يسود السلم بينهما وبين العثمانيين على مدار الصدارة العظمى لإبراهيم باشا.بالإضافة إلى ذلك ومع توليإبراهيم باشا الصدارة العظمى، والذي أصبح فيما بعد داماد السلطان أي زوج ابنته (صهره)، وتوقيع هذه المعاهدة 1718م/ 1130هـ - 1730 م/ 1143هـ بدأ عهد جديد أطلق عليه عصر الزنابق (لاله دورى / Lala devri).

وكما رأينا، بعد خسارة الدولة العثمانية على الجبهة الغربية وسقوط بلغراد بيد النمسا 1717م/1129هـ ، وأكثر بلاد الصرب، ممّا هدد الوجود العثماني بأ كمله في البلقان.

فأرادت الدولة العثمانية ان تستعيض عن هذا الفشل بفتح بلاد جديدة في جهة الشرق، فزحف العثمانيون على الصفويين مستغلين حالة الضعف التي تمر بها، فاستولى العثمانيون على بلاد أرمنييا وبلاد الكرج، بينما استولت روسيا على بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية، وكادت الحرب أن تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناء على طلب روسيا التي وجدت نفسها عاجزة عن القتال. فتم الاتفاق بين الطرفين سنة 1724م / 1136هـ بان يحتفظ كل طرف بالمناطق التي دخلها دون معارضة الآخر[29].

لم يقبل الصفويون بهذا التقسيم لبلادهم، فهبوا وقاتلوا العثمانيين، لكنهم هزموا بسبب الفوضى الداخلية، فخسروا تبريز، وكرجستان، ونهاوند وعدداً من القلاع، وانتهت الحرب بعقد الصلح مع الشاه أشرف في همدان سنة 1727م/1140هـ؛حيثتمالاعترافبالفتوحات العثمانية لهذه الولايات[30].

بعد وفاة الشاه أشرف، طلبت الدولة الصفوية من العثمانيين إعادة ما أخذته من المدن والقلاع. غير أن الدولة العثمانية لم تجب طلبها، فبدأت الدولة الصفوية بشن الغارات على الحدود العثمانية، وبالمقابل أظهرت الدولة العثمانية التردد في إعلان الحرب على الصفويين، فكان هذاسبباً لقيام الثورة الانكشارية على الدولة العثمانية والتي تعرف بثورة باترونا خليل، فنجم عنها خلع السلطان أحمد الثالث، ومقتل صهره الوزير الأعظم إبراهيم باشا[31].

وفي فترة حكم السلطان أحمد الثالث (1703م/1115هـ - 1730م/1143هـ) لم تستقر الوزارة العظمى، فخلال فترة حكمه تعاقب على الوزارة خمسة عشر وزيراً الا أن الوزير الأعظم إبراهيم باشا أمضى فترة طويلة بالوزارة (1718-1730م). أما بقية الوزراء فقد كانت فترة وجودهم بالوزارة قليلة جداً لم تتجاوز الأربع سنوات.

وبلغت مدة حكم السلطان أحمد الثالث 27 عاما (1703 -1730م -1115- 1143هـ)، وبعد خلعه من السلطنة انشغل بالعلم والعبادة. وتوفي عن عمر 63عاما (1737م / 1673هـ). وكان شخصية مثقفة، ويذكر أنه كان مغرماً بالطيور والزهور خاصة " الزنابق "، التي كان مغرماً بها إلى أبعد حد لدرجة أن عهده قد اطلق

[29] محمد فريد بك، ص 146، أوزتونا، م1، ص 603
[30] جودت باشا، م1، ص 72-73، محمد فريد بك، ص 146
[31] محمد فريد بك، ص 146، أحمد جودت باشا، م1، ص 73- 74

عليه " عهد الزنابق " - وهو محور بحث الدراسة - ودفن في مقبرة الجامع الجديد(جامع والدة السلطان في اسطنبول)[32].

اهتم السلطان أحمد الثالث كثيراً بحركة البناء والعمارة، فبنى مؤسسات اجتماعية ودينية كالمدارس والمساجد والاسبلة وزخرفتها. وفي الوقت نفسه أعطى الكثير من الاهتمام للعلماء، وكان يحرص دائماً على حمايتهم ورعايتهم، وعمل على جمع الكتب القيمة، التي كانت متناثرة في أنحاء مختلفة في القصر العثماني، في مكتبة القصر التي تتكون من الرخام الأبيض في الحديقة والتي يتواجد فيها بركة ماء. وبنى لوالدته (والدة سلطان) جامع في اسكدار (الجزء الآسيوي من اسطنبول) والذي يعد من الآثار المهمة التي بناها السلطان أحمد الثالث، أضف إلى ذلك مكتباً للصبيان، وبنى أمام القصر العثماني طوب كابي سبيل ماء (نافورة ماء) وهو عمل رائع يمثل العمارة العثمانية[33].

المبحث الثاني

دور الصدر الأعظم ابراهيم باشا في عصر الزنابق

ولد إبراهيم باشا في نوشهير- مدينة حالياً في وسط تركيا- ولهذا أطلق عليه نوشهرلي (Nevsehirli)، وكانت تعرف قديماً باسم موشقاره (Muskara)، وعرف أيضاً بذلك[34]، وهناك خلاف بالنسبة لتاريخ مولده، فقيل أن مولده كان سنة 1670م[35]، وقيل سنة 1662م[36]. وفيما يبدو لنا أن التاريخ الأقرب لمولده (1662م/1073هـ)، آخذين بعين الاعتبار بأن وفاته كانت سنة (1730م/1143هـ). هذا يعني أنه توفي وعمره يقارب السبعين سنة. مما يشير إلى يكون مولد هسنة (1662م/1073م) وهوالأرجح. ويدعى والده باسم إزدين علي آغا izdin (zeytin) Ali agadir، وهي قصبة في بلاد اليونان جنوب خليج غولوس. وأهالي هذه المنطقة كانوا يطلقون اسم "إزدين " بلغتهم على (zeytin) [37].

جاء إبراهيم باشا إلى اسطنبول عام (1689م/ 1155هـ)، للبحث عن عمل، وفي نفس الوقت لزيارة أقربائه ومنهم اخته[38]. وبمساعدة أحد المقربين له ويدعى مصطفى أفندي،الذي وكان يشغل وظيفة (كاتب المصارف)[39]منذ مدة طويلة في القصر العثماني. تمكن في البداية من العمل في زمرة العاملين في مجال

---

(32) Hakki verdi , p. 32

(33) Hakki Verdi, p. 32-33

(34) Uzuncarsili ,c. 5, p. 147, Yasar Yucel, Alisevim, Turkiye Tarihi Osmanlidonemi (1566-1730), c. 3,Turk Tarih Kurumu, Ankara,1991,p. 276. Ahmet Refik , Lale devri , Ankara, Tarihyayinlari, p. 11. Hakki Verdi, p. 33. Mustafa Islamoglu, Serdengectiler Hareketi,(1730) , Genge yayinlari, Istanbul, 1991, p. 75

(35) Ahmet Refik, p. 11

(36) Hakki Verdi, p. 33

(37) Uzuncarsili, c. 5. ,p. 147

(38) Uzuncarsili, c. 5, p. 147, Ahmet Refik, p. 11, Hakki Verdi, p. 34

(39) اوجاق البلطجية : أحد أصناف العمال العاملين في القصر السلطاني، كانت وظيفتهم في البداية تنظيف الطريق من الأشجار أثناء توجه السلطان للغزو، ولاحقاً صار يطلق على الجند، كالسباهية، وهم فرق من العسكر في الجيش الانكشاري. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة د. عبد الرازق محمد بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، ص 65.

الحلوى، وبعدها انتقل للعمل في (اوجاق البلطجية)، ومن ثم أخذ بالتدرج في المناصب، فتولى منصب كاتب الأوقاف في القصر، وبعدها شغل منصب كاتب الخليفة . وفي هذه الأثناء أصبح من المقربين إلى الشهزادة أحمد، وبعد واقعة أدرنة (1703م/115هـ) شغل منصب (كاتب آغا دار السعادة) [40]. وقام الوزير الأعظم جورولوا علي باشا بالحط من شأنه وبمصادرة أمواله وإبعاده إلى أدرنة[41].

وبعد عدة سنوات رجع إلى اسطنبول وشغل منصب محاسب قصر الحريم. وفي فترة وزارة سلاحدار علي باشا ذهب إلى المورة، وبعدها إلى نيش وهناك شغل منصب دفتردار[42]. وبعد خسارة الدولة العثمانية في حملتها الأخيرة على الجبهة الأوروبية مع النمسا والبندقية في بترفارادين (pertervardin) 1715-1718م والتي سبق الحديث عنها، فقد أرسله قائد الجيش العثماني إلى السلطان أحمد الثالث لتوضيح وشرح مجريات الحرب على الجبهة العثمانية[43]. فتذكره السلطان أحمد الثالث عندما كان شهزاده، فلم يعده إلى الجيش، وتم تنصيبه "روزنمجي ميراخور"[44]، وبعدها تولى منصب قائمقام الصدارة العظمى[45].

وتزوج إبراهيم باشا بابنة السلطان أحمد الثالث الكبيرة السلطانة فاطمة وأصبح صهرا له"داماد "باللغة التركية[46]. وفيما يتعلق بهذا الزواج ذكر محمد أرسلان في مؤلفه " Osmanli makaleleri \ Edebiyet-tarih- kultur"ـ المقالات العثمانية / الادب ـ التاريخ ـ الثقافة ـ بأنه قد عثر على وثيقه توضح أن السلطانة فاطمة قبل زواجها من القائمقام إبراهيم باشا، قد عقد قرانهاعلى الوزير الأعظم علي باشا الذي استشهد في حرب بترفارادين (1717م/1129هـ)، غير أنها لم تزف اليه، وعندما تزوجها إبراهيم باشا كان يبلغ من العمر خمسين سنة، في حين أن السلطانة فاطمة كانت تبلغ من العمر 13 سنة، وأنها لم تزف إليه حتى اكتمل نضجها، وانتظرها مدة بلغت ثماني سنوات، فعبر عن ذلك بشعر قامت بترجمته مدام "Montego" ـ منتجو ـ[47].

وبدأ يسطع نجم إبراهيم باشا صهر السلطان أحمد الثالث بعد توقيع معاهدة بساروفجه (Pasarofca) 1718م /1130هـ، واعتلائه منصب الوزارة العظمى، والبدء في إدارة شوؤن الدولة العثمانية الداخلية والخارجية ودوره البارز في ذلك[48].

وأشار uzuncarsili ـ أوزون جرشلي ـ بأن إبراهيم باشا اعتباراً من سنة 1718م إلى وفاته 1730م، كانت بيده كافة الصلاحيات وكان يتصرف وكأنه بمقام الحاكم [49].

---

(40) كاتب آغا دار السعادة : الموظف المسؤول عن أوقاف الحرمين الذي يقوم بكافة أعمال "آغا البنات" الكتابية. سهيل صابان، المرجع السابق، ص188.

(41) Hakki Verdi,p. 34,Uzuncarsili,c. 5. p. 147, Ahmet Refik, p. 11

(42) Hakki Verdi,p. 34, Uzuncarsili,c. 5. p. 147, Ahmet Refik, p. 11

(43) Hakki Verdi, p. 34, Uzuncarsili, c. 5. p. 147, Ahmet Refik, p. 11-12

(44) روزنمجي ميراخور: لقب يطلق على رئيس الاسطبلات في القصر السلطاني، وهو مأخوذ من اللغة الفارسية. وروزنمجي: متولي الحسابات اليومية والأعمال الجارية في الباب الدفتري بالخزينة العامرة بإسطنبول. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص 37، 128.

(45) Ahmet Refik, p. 12, Uzuncarsili, c. 5. p. 147, Hakki Verdi, p. 34, Yasar Yucel, c. 3. p. 276

(46) Ahmet Refik, p. 12, Uzuncarsili, c. 5. p. 147, Hakki Verdi, p. 34, Yasar Yucel, c. 3. p. 276

(47) Hakki Verdi, p. 34-35,Lady Motagu, Sark Mektuplari, Timas, Istanbul, 1998, p. 50-51

(48) Ahmet Refik,p. 12. Hakki Verdi, p. 35. Uzuncarsili , c. 5. p. 147

(49) Uzuncarsili, c. 5. p. 147

وتتميز شخصية داماد " صهر السلطان " إبراهيم باشا بأنه كان ينفر من القتال والحرب، وإلى إبعاد الدولة عن النزاعات والحروب ويميل إلى السلم والصلح. والبعد عن رائحة البارود والدم في إدارة الدولة، وفي نفس الوقت يميل إلى حياه اللهو والترف والمرح، لبقاً ويتميز بشخصية مهذبة[50].

وذكر أحمد رفيق ألنتي - Ahmet refik Altmay- في مؤلفه لاله دورى - Lale Devri - "عصر الزنابق " بأن إبراهيم باشا كان جميل الهيئة منتصب القامة،ولطيفاً وأنيقاً، وصاحب شخصية مرنة، ويتصف بالوقار، وصاحب كرامة واعتبار، حتى أن يديه كانتا ناعمتين وأنيقتين تشبهان يدي المرأة، يميل إلى الانغماس في حياة اللهو والترف، ويحب الزينة فكانت يداه مزينتين بالخواتم من الماس والفضة، ويرتدي ألبسة مرصعة بالجواهر من الزمرد والماس، وكان مولعاً أشد الولع بالأبهة والزينة[51].

أما النهج السياسي الذي انتهجه في إدارته للدولة العثمانية فقد كانت غايته التركيز على العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية، والعيش معها بانسجام، وإنهاء حالة الحرب، والسعى إلى ابقاء الدولة العثمانية خارج الحروب الدائرة في أوروبا. أما على الصعيد الداخلي فكان هدفه هو تجديد وإجراء إصلاحات عسكرية وإداريةوعلميةوفكرية، وإصلاح مؤسسات الدولة التي ضعفت من خلال الوقوف على أحوال الدول الغربية. فعن طريق انتهاج سياسة السّلم يمكن تكوين فكرة أفضل عن أسباب النجاح الذي حققته في مختلف المجالات[52].

ولتحقيق ذلك عمل على إحكام سيطرته على إدارة الدولة وتقوية مكانته من خلال تعيين أشخاص مقربين له في مؤسسات الدولة[53]. وبعد نهاية الحرب مع البندقية والنمسا، وتوقيع معاهدة بساروفجه (Pasarofca) 1718م/1130هـ، فتح عهد جديد من السلم والاستقرار أطلق عليه اسم "عصر الزنابق " - Lale devri- لاله دورى[54].

المبحث الثالث

المظاهر الفكرية في عصر الزنابق

"العصر الزنبقي" اسم اطلق على آواخرعهد السلطان أحمد الثالث ووزيره داماد " صهره " إبراهيم باشا، فالسلطان أحمد الثالث عندما صعد على عرش الدولة العثمانية (1703م/115هـ) مبدياً رغبته وميله لتحقيق السلام وكرهه للحرب. لكن هذه الرغبة لم تتحقق إلا بعد سنوات حين عقدت معاهدة بساروفجه (1718م/1130هـ) التي كان بطلها صهره إبراهيم باشا، فقد كان يتفق مع السلطان أحمد الثالث من حيث ميله

(50) Hakki Verdi,p. 37
(51) Ahmet Refik, p. 18
(52) مانتران، ج1، ص 414- 415
(53) Ahmet Refik , p. 13
(54) Ahmet Refik , p. 16 , Hakki Verdi , 36

إلى السلام وكرهه للحرب، مشجعاً للفنون والآداب، فبقي في منصبه حتى سنة (1730م / 1143هـ)، خلال هذه الفترة شهدت الأستانة عهداً من ازدهار الفنون والآداب وازدياد الشعراء.

مما يجدر الإشاره إليه أن هذا العصر لم يُعرف قبل القرن الثامن عشر، فقد أطلق عليه المؤرخ التركي أحمد رفيق آلنطاي هذا الاسم في مؤلفه (عصر الزنابق) " Lale devri " الذي ألفه 1913م، فأصبح هذا الاسم هو المتعارف عليه[55]. لكن هذا لا يعني ان يأخذنا التفكير بعيداً، بأن الدولة العثمانية لم تعرف زهرة الزنبق إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، بل أن زهرة الزنبق أحبها الأتراك في العصور القديمة بكثير، وزرعوها في حدائقهم وعرفّوا أوروبا بها[56]. فاعتباراً من القرن (13م/7هـ) استخدمت زهرة الزنبق على الأبنية والأدوات والأواني السلجوقية[57].

والزنبق في الفارسية اللون الأحمر، غير أن هذا المعنى مع الوقت فقد قيمته لزراعة زهور الزنبق وظهور ألوان أخرى غير اللون الأحمر[58]. وتعرف بزهرة الخجل لأن الخجل رمز الحياء[59].

وقد عرف زهرة الزنبق سفير الإمبراطورية الألمانية والتي كانت عاصمتها فيينا في اسطنبول أوغير غسيلاين بوسبك - Ogier ghislain de busbecg- في عهد السلطان سليمان القانوني (1520م - 1566م)واخذها إلى بلده في سنة 1554م[60]. وكان صديق الأمبراطورية الألمانية ويدعى (carolus) قد عمل في جامعة ليدن في هولندا على زراعة بصيلات زهرة الزنبق لأول مره في أوروبا[61].

وهكذا وصلت بصيلات زهرة الزنبق إلى أوروبا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي من اسطنبول وعلى وجه الخصوص إلى المانيا وهولندا؛بحيث أصبحت سلعة مطلوبة بشكل كبير. ومن المحتمل أن الاسم استلهم من نوع زنبق " دولبند" Tulpen/Tulipan لذلك سميت بالألمانية توليب (Tulpe)، وسمي العصر كذلك بعصر توليب[62].

ويذكر أن زهرة الزنبق البري هي تركية الأصل، وتوصف بأنها زهرة قومية. وزهرة الزنبق المحبوبة كثيراً والمنتشرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، قد دخلت الزخرفة وفن الخط، والخزف التركي، وكانت لها مكانة مختلفة في حياة الأتراك[63].

يعد الوزير الأعظم إبراهيم باشا من هواة وعشاق زهرة الزنبق (اللاله) ويعرف عهده(بعصر الزنابق)وكان يقدم مكافأة لمن يقوم بزراعة الزنبق. أما هو فله حديقة يزرع فيها بنفسه زهرة الزنبق، وكان

---

(55) Hakki Verdi,p. 19
(56) إيلبير أورطا يلي، العثمانيون في ثلاث قارات، ص81
(57) Hakki Verdi,p. 15
(58) Ibid. , p. 21
(59) Ibid. , p. 15
(60) Ibid. , p. 17
(61) Ibid. , p. 17
(62) أورطايلي، ص81؛ Hakki Verdi,p. 17
(63) أورطايلي، ص 82

يحب من الألوان الأخضر والزمرد، وأطلق عليها أسماء عديدة منها آساف، والزمرد، وبذور الصدر الأعظم النادرة[64].

وظهرفي هذا العصر شعراء زهرة الزنبق، فذكر في الشعر ما يقارب 107 اسما لزهرة الزنبق وبذلك خلدت أسماء زهرة الزنبق، وتم تحديد كل نوع ومن قام بزراعتها، وخصصت قصيدة شعرية لكل زهرة زنبق. فشبهت بأشكال متعددة؛ الجمال، والقمر، والشمس، وقدح الشراب، والشكوى، وخدود الحبيبة، والشفاه، والأمل، والطبيعة. وتعتبر" مجموعة فائز وشاكر الشعرية " - Faiz ve sakir mecmuasi- من المصادر المهمة لهذا العصروالذي يحتوى على أسماء لزهرة الزنبق جميعها من خلال القصائد الشعرية الواردة فيها[65].

وكثيراً ما كانت تقام الحفلات أو التجمعات الأدبية والتي يتم فيها قول الشعربزهرة الزنبق. وكذلك كانت تنظم المسابقات لاستزراع أو استنبات زهرة الزنبق، وكتبت العديد من الرسائل المتعلقة بزهرة الزنبق، ففي القرن السادس عشر الميلادي تم زراعة ما يقارب من 2 مليون زهرة زنبق في اسطنبول من شتى الأنواع والأجناس[66].

وكان صاحب زهرة الزنبق يكتسب شهرة كبيرة، ومن يقوم بزراعتها يوصف بأنه أكثر رقة ويبعدعن العيوب والخلل، وكان هنا كشاعر لكل زهرة وفق لونها، تسمى باسمه، وظهر ما يعرف "أدب اللاله"- الزنبق - أو الزهور. وقام الشيخ محمد زراع الزنبقzarf – seyh Mohamed lale - بتأليف كتابه ميزان الأزهار - mizanul ezhar-، وفي عام 1815 م تمت ترجمته إلى اللغة الالمانية، وقام جورج. أس. موراي بوضع ملخص له باللغة الانجليزية[67].

وظهر الطبيب محمد آشقي - Tabib Mohamed Aski Efendi- الذي ألف كتابه بخصوص زهرة الزنبق - Miyarul-Ezhar - جمع فيه كل القصائد الشعرية التي قيلت بزهرة الزنبق، ووصف الأحاسيس والمشاعر تجاه كل زهرة، والجمال الخارجي لها وسماتها[68].

عصر الزنابق اذاً عصرعشق وجنون بزهرة الزنبق؛ حيث أصبحت هواية زراعة أزهار الزنبق الشغل الشاغل للناس ابتداء من السلطان أحمد الثالث إلى الفقير المعدم، فهذا الهوس بالزهرة جعل السلطان يأمر بأن تباع بأسعار يستطيع الناس أن يشتروها[69].

وقد جرت في عصر الزنابق تغيرات وتجديدات ثقافية وفكرية؛حيث يعتبر السلطان أحمد الثالث وصهره الوزير الأعظم إبراهيم باشا من الشخصيات البارزة التيلعبت دوراً فاعلاً في إجراءهذه التجديدات الثقافية في الدولة العثمانية.

---

(64) Hakki Verdi, p. 18-20
(65) Ibid. , pp. 20- 21
(66) Ibid. , p. 22
(67) Ibid. , p. 19
(68) Ibid. , p. 19
(69) Ibid. , p. 39؛ Uzuncarsili,c. 5. p. 167-168

ويعد هذا العصر، كذلك،الخطوة الأولى في بناء علاقات تقارب بين الثقافتين العثمانية والأوروبية، وأول مسؤول عثماني يقرأويدرك أهمية التعرف على أوروبا هو الوزير الأعظم إبراهيم باشا، ويتفق معه في ذلك السلطان أحمد الثالث، ومجموعة من الموظفين والمثقفين العثمانيين في إقامة علاقات أقوى وأوسع مع دول الغرب الأوروبي، لذلك أرسل السفراء إلى العواصم الأوروبية للاطلاع عن كثب على منجزات الحضارة الغربية، وانتقاء ما يصلح منها لحياة الدولة العثمانية. وممن ساهموا في هذا المجال المبعوث العثماني يكرمي سكز - 28 - محمد شلبي، فكان للمؤلف الذي ألفه - Fransa Vesait –I Umran ve ma-'Arifne-"وسائط فرنسا في المعرفة والعمران "، أهمية كبيرة بتوجه الدولة العثمانية نحو فرنسا[70].

كما أظهر الوزير الأعظم اهتماماً كبيراًبالعلم والعلماء، من خلال دعوتهم إلى مجلسه وكان في كثير من الأحيان ينقاشهم ويدخل معهم في مناظرات علمية، ويأخذ بآرائهم حول مسائل وقضايا كانت تواجهه. ومن أبرز العلماء في هذه الحقبة الذين كانوا حول الوزيرالأعظم إبراهيم باشا، وهبي - Seyyid Vehbi-، ناهفى - Nahifi- وأحمد نايلي - Ahmet Neyli- والشاعر المشهور نديم -Nedim- والمؤرخ رشيد - Muverrih Rasid، وعثمان زادة Osman –Zade[71]. بالإضافة الى تشكيله هيئة علمية في عام (1725م/1138هـ).

وترجمت المؤلفات التي ألفت باللغة العربية والفارسية إلى اللغة التركيةومنها : كتاب بدر الدين محمود - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان وهو باللغة العربية، ومؤلف فارسي آخر هو كتاب غياث الدين هوندمير (Hondmir) - حبيب السير -Habibbus-siyer، ومؤلف في اللغة العربية لمنجم الدين أحمد داده - جامع الدول - ويسمى صحائف الأخبار - Sahaifulahbar، ومؤلف لكمال الدين عبد الرازق باللغة الفارسية - مطلع السدين - Matlaus-sa deyn-[72].

وترجم اليانلي أسعد أفندي - YanyaliEsat Efendi - مؤلف أرسطو في الفيزياء - فقد كانت له معرفة كبيرة باللغة اليونانية - مع -Spandoni Oglu-. وترجم كذلك عدداً قليلاً من المؤلفات المهمة التي تتعلق بالطب[73].

وسجلت هذه المرحلة الحدث الكبير الذي ظهر وهو إدخال الطباعة، ويبدو أن الفكرة قد بدأت عندما كان محمد أفندي المعروف بـ يكرمي سكز - (28) شلبي سفيرا في باريس سنة (1720م/1132هـ) وبصحبته ابنه سعيد أفندي، فشاهد الطباعة هناك، فلما عاد إلى اسطنبول، التقى مع أصحاب الشأن والمعرفة فالكل أبدى عدم اعتراضه عليها، وكان وقتئذ إبراهيمأفندي متفرقة الهنغاري الأصل (ت1745م/ 1158هـ) المعروف بإبراهيم آغا انكروس،كان ماهراً في الرياضيات والكثير من العلوم الأخرى، ويتصف بالذكاء والإقدام، الذي جاء إلى اسطنبول في العشرين من العمر تقريباً ودخل الإسلام وألف " الرسالة الإسلامية ". ثم دخل في خدمة الدولة، حيث أسندت إليه مهمات ديبلوماسية متعددة، وبرز دوره بعد صلحبساروفجه (1718م/1130هـ)؛

[70] مانتران، ج1، ص 414- 415؛ Yasar Yucel , lll. P. 277,Hakki Verdi,p. 40, Ahmet Refik,p. 18-19 ؛ Uzuncarsili ,c. 5. P150-151.

[71] Uzuncarsili, c. 5,p. 152,Yasar Yucel,lll, p. 277-278,Hakki Verdi,p. 41, Ahmet Refik,p. 67-68

[72] Yasar Yucel,lll. p. 279, Uzuncarsili, c. 5,p. 153-155Ahmet Refik,p. 68-89,

[73] Hakki Verdi,p. 42, Uzuncarsili,c. 5. p. 155

إذكان من أبرز الداعين إلى الانفتاح على الغرب، ونظراً لخدماته للدولة كانت تقدم له راتباً 99 درهماً من الفضة، سمي هذا الراتب متفرقة دركاه عالي، لهذا عرف باسم إبراهيم متفرقة[74].

وتوصل سعيد أفندي وإبراهيم متفرقة إلى ضرورة وأهمية المطبعة، وعرض الموضوع على الوزيرالأعظم إبراهيم للسماح لهم بطبع كتب اللغة والتاريخ والطب وسائر الفنون، ما عدا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام.وقدم الوزير الأعظم إبراهيم باشا الدعم والمساندة حول استخدام الطباعة، ويبدو أنّهناك تردداً من قبل بعض كبار رجال الدولة في استخدام الطباعة، لكن مع إصرار سعيد أفندي ودعم الوزير الأعظم إبراهيم باشا ووعوده لهم، تم الحصول على إذن من شيخ الإسلام عبدالله أفنديبفتح المطبعة في طبع سائر الكتب ما عدا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام، التي بدأ عملها وإنتاجهافي سنة (1727م/ 1129هـ)، وعين إسحاق أفندي قاضي اسطنبول السابق وبيرى زاده، وأسعد أفندي اليانيلي وموسى أفندي، لتصحيح الكتب المطبوعة، تم طبع كتب اللغة التي كان الطلبة بحاجة إليها، منها " قاموس وانقولي " في مجلدين وبيعت كلّ نسخة بخمسة وثلاثين قرشاً. وطبع كتاب للكاتب شلبي " تحفة الكبار في أسفار البحار" حبيب السير، وتقويم التواريخ، وتاريخ نعيمه، وتاريخ راشد وذيل شلبي، وتاريخ الأفغان الذي ترجمه إبراهيممتفرقة من اللغة اللاتنية، وطبع" تاريخ الهند الغربي"، وتاريخ تيمور لنظمى زاده، وتاريخ مصر القديم والجديد لسهيل. وطبع أيضاً كتاب كلشن خلفا - Gulseni Hulefas- لنظمى زاده، ثم كتاب نظام الأمم وفيوضات مغناطيسية لإبراهيممتفرقة، وغيرها من الكتب التي يقارب عددها 17 كتاباً. ونشر إبراهيممتفرقة رسالة بعنوان "وسيلة الطباعة" شرح فيها ضرورة استخدام الطباعة في بلاد المسلمين. وحضر إبراهيم متفرقة حروفاًفرنسية وطبع خريطتي البحر الأسود وبحر الخزر باللغتين التركية والفرنسية[75].

وقد كانت المطبعة موجودة في بعض المدن العثمانية، وفي اسطنبول قبل تأسيس المطبعة في عصر السلطان أحمد الثالث، وجدت بعض المطابع التي طبعت بعض الكتب بالأرمنية والرومانية والعبرية ، أما وجود مطبعة بأحرف عربية فلميكنهذاأمراًمتعارفاًعليه، ولكن الشيء الجديد هو الطباعة باللغة العثمانية بشكل منهجي منتظم[76].

أما فيما يتعلقبالرخصة الممنوحة لإبراهيم متفرقة وسعيد أفندي، والتي لا تشمل طبع كتب التفسير والحديث والفقه والكلام، خوفاً من اعتراض أصحاب التعصب، فمضت مدة طويلة لم تطبع فيها كتب شرعية، إلى أن رأى علماء أصول الفقه أنه لا بأس في طبع الكتب الشرعية وإن كان ذلك يخل بعظمتها، واستناداً على القضية المسلّمة عندهم " الأمور بمقاصدها " وبناء على ذلك أجازوا تجليد القرآن الكريم خوفاً من ضياع أوراقه، مع أن التجليد يخل بالتعظيم أكثر من الطبع، مثل الضربالمطارق والتضييق بالملازم. وللمقاصد الخيرية في تكثير الكتب نوعوا طبعها تعميماً لمنافع الطلبة فاستفاد من ذلك جميع أصحاب الفنون[77].

---

[74] جودت باشا، م1، ص82، سيد مصطفى، الاصلاح العثماني في القرن الثامن عشر (نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية) المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1979، ص15؛ Yasar Yucel, lll. P. 280, Ahmet Refik,p. 69

[75] Uzuncarsili,c. 5. p. 158-162; Hakki Verdi,p. 43-44; Yasar Yucel,lll. pp. 279-281; Ahmet Refik,p69-70؛ روبير مانتران، ج1، 416- 418؛ جودت باشا، م1، ص82- 83.

[76] Uzuncarsili,c. 5. p. 158,Hakki Verdi,p. 43,Yasar Yucel,lll. p. 280

[77] جودت باشا، م1، ص84

من جانب آخر، فقد أولى السلطان أحمد الثالث (1703- 1730م) ووزيره الأعظم إبراهيم باشا اهتماماً كبيراً بضرورة إقامة علاقات أقوى وأوسع مع دول الغرب الأوروبي وذلك للاطلاع عن كثب على أساليب حياتها، ومنجزاتها الحضارية، من خلال تكثيف الاتصالات مع ممثلي الدول الغربية في اسطنبول، وتاكيداً لها أن الدولة العثمانية ترميإلى الحفاظ على إقامة علاقات سلمية، وإرسال السفراء إلى العواصم الأوروبية؛ حيث أرسلت إلى فيينا (1719- 1730م)، وباريس (1720- 1721م) وموسكو (1722- 1723م) وبولندا (1730م). وطلبت الدولة العثمانية من سفيرها محمد شلبي أفندي المعروف بكرمي سكز"28 "في فرنسا عام (1720م) إعداد تقرير حول مشاهداته عن تلك البلاد، لينظر في إمكانية تحديث مؤسسات مشابهة لها في الدولة العثمانية[78].

كان التقرير يتضمن وصفاً مسهباً للعاصمة باريس وضخامتها وأنهارها والجسور والمباني الفخمة، ويذكر السفير العثماني محمد باشا أحوال الجيش وما يتميز به من التنظيم والقوة والاهتمام الكبير به من جهة الدولة، ويشير أيضاً إلىجولاته للمصانع وللمرصد الجوي وغيرها من المؤسسات، ويذكر معلومات بشأن الحياة الفرنسية كحرية المرأة ومعاملة الرجال للنساء. ويعبر السفير بقوله : إن الفرنج يختلفون عن الأتراك كما يختلف الليل عن النهار. وتحدث في التقرير عن حدائق " مارلي " المدهشة ويعتقد بأنها جنة بقوله : وفهمت الآن معنى المشهد الجميل في القرآن، أن العالم سجن المؤمنين وجنة الكافرين[79].

وعليه،يمكننا القول أن هذا التقرير الذي قدّمه السفير العثماني يحتوى على معلومات تفصيلية عن حياة الأوروبيين وإنجازاتهم الحضارية مثل: التنظيم العسكري، والمصانع، العلوم، وفن العمارة وهندستها، ومما لا شك فيه أنه كان له تاثير على الطبقة الحاكمة في الدولة العثمانية في لفت انتباهم إلى ضرورة تجديد/ تحديث مؤسسات الدولة لإعادة الحياة إليها من جديد.

وتحقيقا لذلك، أنشئت في كل طرف من أطراف اسطنبول المؤسسات الخيرية والاجتماعية من إنشاء/ بناء الأسبلة والجوامع، والطرق، ومدرسة لدار الحديث، والمكتبات. فأنشأ السلطان أحمد الثالث مكتبةفيالقصر وأخرى في الجامع الجديد، وعيّن الشاعر نديم مسؤولا عنها. ومصانع للقماش، والورق، وأدخل إلى الجيش اختصاصات جديدة ، كالهندسة والطب، والبيطرة، وشُكلت وحدة إطفائية[80].

وأعجب السلطان أحمد الثالث بالوصف الذي قدمه سفيره محمد أفندي بخصوص القصور وهندسة العمارة، لذلك حث حاشيته وكبار رجال دولته على بناء قصور تشبه فرساي ومارلي. فبنى الوزيرالأعظم إبراهيم باشا الكثير من القصور والحدائق الفخمة في مختلف أنحاء اسطنبول لدرجة مبالغ فيها توصف بالبذخ والترف، منها قصر " جراغان ".وكان الوزير الأعظم إبراهيم يقيم مأدبة كبيرةكل سنة يدعو إليها السلطان وكبار رجال الدولة لمشاهدة السلاحف الحاملة للأنوار، وهذه الحفلات وسهرات اللهوالتي تجاوزت الحدود، كانت تستمر عدة أسابيع، وكانوا يطلقون عليها سهرة تاطلي ـ الحلوى ـ وتستمر خمسة أو ستة أيام. وفي

(78) Uzuncarsili. c5. p. 150-152; Yasar Yucel, lll. P. 282؛ سيد مصطفى، ص13-14؛ روبير مانتران، م1 ص 415.
(79) سيد مصطفى، ص 14
(80) Hakki Verdi,p. 42-43؛ Uzuncarsili,c. 5. p. 156-157؛ اورطايلي، ص 87؛ عبدالرحمن شرف، م1، ص152-153.

منطقة " الكاغد خانة " في اسطنبول بنى الوزير الأعظم إبراهيم باشا نحو ستين قصراً وحدائق عديدة، وبنى أيضاً قصر سعد آباد، وغيرها من القصور الفخمة والتي كتب فيها الكثير من القصائد الشعرية[81].

ومنها على سبيل المثال:

Mes ale yakdi olup mir-i mukerrem lale

[82]Kurdi har-gahini gul -sende muazzam lale

أشعل الزنبق شعلته سادتي الكرام

وضربت سرادقه المعظمة في حديقة الورود

وتأثر الناس بذلك أيضاً، فشيدوا الأبنية والقاعات الفخمة الجميلة بأنواع الرخام وزينوها بالأزهار، وأناروا المصابيح ووضعوها على ظهور السلاحف، التي تتجول في طرق القاعات والجنائن، فكانت ترسل نورها من على ظهورها بشكل منتظم. وأقاموا الحفلات والسهرات، وعرفت سهرات الصيف "بسهرات الزنبق "، والشتاء " بسهرات الحلوى "، حتى أن السلطان أحمد الثالث كان ينضم إلى تلك الحفلات التي يقيمها كبار رجال دولته[83].

وبدأت المدن تستمر بحياتها المستقلة، ودخل الإداريون المحليون ببعض النشاطات الخاصة، وأنشاوا أبنية جديدة في مدن البلقان ودمشق وحلب وطرابلس الغرب وطرابلس الشام. منها قصر العظم والخانات في دمشق، والعديد من الأبنية والقصور في طرابلس الشام، وجامع أحمد باشا الجزار في عكا. وحتى الأطراف العثمانية تغيرت حياتها ومتعها مع التغيرات التي حدثت في عاصمتها؛إذ أصبحت اللغة العثمانية(التركية) موجهة إلى الناس، ودخلت لغة الناس إلى الأدب الكلاسيكي[84].

المبحث الرابع

ثورة الانكشارية ونهاية عصر الزنابق (1730م / 1143هـ)

لا شك أن هذا الوضع الذي كانت تمر به الدولة العثمانية خلال عصر الزنابق، من حالة الانفتاح على أساليب الحياة الأوربية ودخولها على المجتمع العثماني،عجل بقيام تمردعلى ما كان يحدث من تجديدات أو تغيرات داخل المجتمع العثماني.

ومن الذين أبدوا رفضهم أو عدم قبولهم على ما كان يجرى من تغيرات داخل المجتمع العثماني فئة علماء الدين؛ حيث كان لهم تقدير واحترام وتأثير كبير على المجتمع العثماني. فعملوا على تحريض الناس

(81) Uzuncarsili,c. 5,p. 163-166; Hakki Verdi,p. 38; Ahmet Refik ,p. 27-28؛ جودت باشا، م1 ص71
(82) Hakki Verdi,p. 25
(83) Hakki Verdi,p. 38؛ جودت باشا، م1، ص71
(84) اورطايلي، ص 88 - 89

وتنبيههم إلى ما يجرى من هدر الأموال المكلفة، وانغماس السلطان أحمد الثالث وحاشيته من كبار رجال الدولة في الترف واللهو، وإقامة الحفلات والسهرات، والثراء والجاه الذي يعيشون فيه، وبناء القصور الفخمة التي كانت منتشرة في كافة أنحاء اسطنبول، مما أدى إلى نفور الناس من ذلك، وانتشار القال والقيل في كل مكان. وكان منهم قاضي اسطنبول زلالي حسن أفنديzulali hasan Effendi- خطيب آيا صوفيا اسبرى زاده -ispirizade-، وانقاد رجال الدين لحسّهم في تحقيق طموح أو مآرب شخصية لهم، وقد تم عزل زلالي حسن أفندي قاضي اسطنبول من منصبه وقيلإن الخير والبركة قد فقدت من اسطنبول بسبب عزله، فكان لزلالي حسن أفندي واسبرى زاده تأثير كبير في إثارة الناس ضد السلطان أحمد الثالث وكبار حاشيته[85].

أما الطبقات المحرومة والأقل حظاً من الاستمتاع بالرخاء والازدهار، فهي طبقات الحرفين والفلاحين والصناع والعامة، التي تتصف بالبساطة ويغلب عليها الجهل، وكانوا ينظرون إلى تصرفات السلطان أحمد الثالث وكبار رجال دولته وما هم فيه من البذخ والثراء نظرة اغتباط وحسد. فعمل رجال الدين على إثارة واستغلال الحس الديني لديهم وإثارتهم على السلب والنهب من أجل حماية الدين[86].

وهناك الانكشارية التي تأثرت بما كان يجرى خلال عصر الزنابق، والتي أصابها التفكك والضعف، والتأخر في دفع رواتبهم، من جراء ماكان يحدث من اختلاطها بالمجتمع وتحولها لممارسة الحرف والتجارة وغيرها[87]. ويصف جودت باشا حال العسكر بقوله: (... إن العسكر في ابتداء أمرهم كانوا منقادين إلى الروابط والنظامات، كانت شجاعتهم وبسالتهم لا يختلف فيها اثنان، ثم أنهم في عصر السلطان أحمد الثالث عندما جرى الاحتفال الهمايوني وقتئذ، وبمساعدة إبراهيم باشا المقتول لا أراحه الله ألحق أصحاب المطافي بسلك العسكر المسمى قول، فاختل نظام الجند وامتلأ أوجاق- أوجاق وحدة عسكرية باللغة التركية-الانكشارية العامر بأسافل الناس)[88].

ويتابع جودت باشا تصوير الوضع الذي آل إليه الجيش الانكشاري خلال هذه الفترة بأنه قد قتل الكثير منهم في حروبهم مع الصفويين، ولم يبق من يتمسك بالقوانيين إلا القليل منهم، وكان من العادة أن يقام على حراسة الثغور شرذمة من الجند،فأعرض الكثير منهم عن الرغبة في القتال، غير أن إبراهيم باشا المقتول الذي أنس الترف فأبعدهم عن مراكزهم وذلك لإرضاء الغرب والتقرب منهم، وأيضاً أعدم الكثير من قادة الجند المعروفين بالشجاعة والشهامة لأسباب واهية في اسطنبول، مما أدى إلى شيوع الخوف بين العسكر، وانتشرت الرشوة بين أغاوات الانكشارية لنيل المناصب، كما كانوا يأخذونها أيضاً لتوظيف غيرهم في وظيفة الضباط وصارت وظيفة الأسامى " وهي وظيفة عسكرية ذات راتب " - كوظيفة الدعاكوا- "الذين لهم معاشات ولا وظيفة لهم إلا الدعاء تباع وتشترى.وإذا كان أحد الانكشارية حائزاً على سبعة أقجايات من الأسامى كان يرى نفسه أنه في راحة أعظم من راحة وزراء الدولة، وأن ما ناله هو عناية كبرى، فصار آغاوات الانكشارية الذين نالوا هذا المنصب بالرشوة وبغير استحقاق يرسلون عند صرف مرتباتهم معاش عشرة أيام أو عشرين يوماً من معيناتهم اليومية لرجال الدولة وأهل النفوذ فيها استجلابا لخواطرهم ؛ فلم يبق مع هذه الحال شجاع يركن إليه ويعول عليه من الانكشارية الحقيقيين. فصارت لذلك الوظيفة العسكرية التي كان يفتخر بها بمنزلة علوفة

(85) Ahmet Refik, p. 86-92
(86) Ahmet Refik,p. 87 ,92
(87) MunirAktepe, Patrona Isyani(1730), Istanbul, Edebiyt Fakultesi,1958,p. 39-40
(88) جودت باشا، م1، 117-118

الكمرك التي تعطى لخدمة قضاة العسكر وخدمة رجال الدولة المعروفين بقبوجوقدار فسقط لذلك اعتبارها. وعندما رأى العسكر أن مرتبات الخدم تزيد على مرتباتهم ثلاثة أضعاف مع أنهم يتحملون الكثير من المصاعب والمشاق، مما أدى إلى ضعف هممهم وتمنوا بأن يكونوا مكانهم بدلاًمن أن يكونوا جنوداً، وبذلك أصبحت الوظائف العسكرية تنتقل يومياًإلى أرباب التقاعد، فقل عدد عسكر المشاة،وأصبحت الدولة مجبرة عند وقوع الحرب على تجديد الجند الأسامى وزيادته مما أثقل خزينة الدولة العثمانية[89].

وقد عجل بحدوث التمرد الانكشاري ظهور الأمراض والأوبئة والمجاعة، وانخفاض قيمة العملة في الدولة العثمانية، والتي نجم عنها التضخم وأدى بالتالي إلى أزمة مالية، أثرت تأثيراً كبيراً على فئة الأصناف من الحرفيين والتجار والصناع في المدن. ولم يبدِ الوزير الأعظم إبراهيم باشا استعداداً لإيجادبدائل أو طرق لمعالجة هذه الأوضاع. وكذلك عزله لقاضي اسطنبول زلالي حسن أفندي، والمدرس دلي إبراهيمأفندي، وأسبرى زاده أحمد أفندي، فشعروا بموجب ذلك بالغضب لفقدان مكانتهم وسلطتهم التي كانت لهم بين الناس. لذلك كان لهم تأثير كبير في تحريض الناس بإثارة الحس الديني لديهم ، للوقوف في وجه ما يجرى من تغييرات وتجديدات في الدولة العثمانية.

وكذلك انعدام الأمن وانتشار قطاع الطرق في مختلف أنحاء الأناضول، والتي أدت إلى هجرة الفلاحين وترك أراضيهم الزراعية، والغالبية العظمى قد توجهت للاستقرار في اسطنبول ما أدى إلى زيادة عدد السكان وإحداث خلل في التوازن السكاني وزيادة عدد العاطلين عن العمل.

ورافق ذلك أيضاً فرض المزيد من الضرائب الباهظة على عامة الناس. ولعب علماء الدين على وتر إثارة العاطفة الدنيية عندهم للوقوف في وجه سياسية السلطان أحمد الثالث وكبار رجال دولته في تصرفاتهم وسلوكهم في اقتباس الحياة الأوروبية، وانعكاس ذلك على حياة الناس في الدولة العثمانية[90].

ومما أدى إلى تفاقم الوضع،الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية على الجبهة الغربية، والتي نجم عنها توقيع معاهدة باساروفجه عام 1718م السابقة الذكر.

وعلى الجبهة الشرقية شكلت غارات الصفويين على الحدود العثمانية، وما أخبر به الجيش العثماني من استخدام الصفويين أساليب العنف بحق العسكر العثماني،على أثارة ردة فعل قوية عند الناس بالهتاف لاستثارة همة الجيش العثماني قائلين " أو ليس عندكم الغيرة الدنيية ". فعند ذلك قام الوزير الأعظم إبراهيم باشا بإعداد الجيش لمواجهة الخطر الصفوي وأعلن الخروج، غيرأن التردد الذي أظهره في التصدي لهذا الخطر من خلال ما كان يشيع أنه سوف يخرج بنفسه للحرب، وتارة أن السلطان بنفسه سوف يخرج لملاقاة الصفويين، زاد من كره الناس لهذا التردد الذي أظهره السلطان ووزيره، مما أججهم ضد الدولة العثمانية[91].

---

(89) المصدر السابق، م1، ص 118- 119

(90) Munir Aktepe, p. 18-33, Ahmet Refik,p. 90-92, Abdi Tarihi,(1730) Patrona Ihtilali, Turk Tarih Kurumu, 1943, p. 28, H. Mustafa Eravci, Ilker Kiremit, Lale Donemi ve Patrona Halil Isyani Uzerine Yeni Degerlendiemeler,Tarih Okulu, Eylul-Aralik 2010, Sayi,vlll,p. 83-85

(91) Munir Aktepe,p71-74 ؛ Ahmet Refik,p92-93؛ Abdi tarihi, 25-26؛ H. mustafa Eravci,Ilker kiremit, P. 85-86

بناء على ماسبق فإن تلك الأوضاع التي سبق ذكرها قد ولدت ثورة أو حركة عصيان تعد من أعنف وأكبر الثورات التي تعرضت لها الدولة العثمانية.

وتزعم تلك الثورة جندي من أوجاق الانكشارية ويدعى باترونا خليل- باترونا لقب اطلق عليه مناصروه من الانكشارية وبخاصة ابناء جلدته منهم ويعني نائب الأدميرال(امير البحر)- أرناؤوطي الأصل. ومن أبرز الشخصيات التي أيدته وانضمت إليه واعظ آيا صوفيا اسبرى زاده، قاضي اسطنبول زلالي حسن أفندي، قهوجي علي، والخضارجي موصولو وكان لهم الدور الفعال في توجيه مسار الثورة وتحريض الناس ضد الدولة العثمانية[92].

في صباح يوم الخميس 15 من ربيع الأول (1143هـ/ 1730م) بدأ العصاة بالتجمع، ويقودهم باترونا خليل ورفاقه بالتوجه نحو الأسواق والحارات في اسطنبول لجمع أكبر عدد ممكن من المؤيدين لهم، ويهتفون بأصوات مرتفعة " دعوانا حق وشرعية ومن كان من أمة محمد، فليغلق دكانه ولينضم إلينا تحت العلم ".

وانتشرت الضوضاء، وأغلق الحرفيون والتجار والصناع محلاتهم، وتوجهوا بسرعة إلى ميدان الخيل " أت ميدان At –meydan- وكانوا يهددون ويحملون بأيدهم أسلحة حادة، وضُربت الطبول في مختلف أحياء اسطنبول، يحثون الناس للتمرد والعصيان، وازدادت أعدادهم أكثر بعد انضمام الكتيبة الخامسة من الانكشارية،فأصبحوا أكثر قوة. وصادف أن معظم كبار رجال الدولة كانوا يتواجدون في قصورهم في ولاية اسكدار الواقعة على الجانب الآسيوي، خارج اسطنبول، بما فيهم السلطان أحمد الثالث ووزيره الأعظم إبراهيم باشا، ماعدا قائمقام اسطنبول قايماق مصطفى باشا - Kaymakami Kaymak Mustafa Pasa- وآغا الانكشارية حسن آغا، و رئيس أفندي - Reis Efendi- غير أنهم لم يأخذوا الموضوع على محمل الجد، حتى أنه لم يخطر ببالهم أي احتمال لوقوع هذا الأمر، فظنوا أنها عبارة عن مجموعة صغيرة قد تجمعت في ميدان الخيل ويمكن القضاء عليها بسهولة[93].

لكن الأمر على غير ما اعتقدوا، فوصلت الأخبار من الذين شاهدوا العصيان، بأن أعدادهم بازدياد مستمر، وعلى وجه السرعة عبرقائمقام اسطنبول مصطفى باشا إلى اسكدارالواقعة على الشطر الآسيوي من اسطنبول، ليخبر السلطان بخطورة الوضع الذي يحيط به وبوزيره الأعظم إبراهيم باشا. أما آغا الانكشارية حسن أغا خرج ومعه ما يقارب ثلاثمائة من الجند، ، وأخذ يهتف في كل مكان في اسطنبول محاولا طمأنة الناس بالعودة إلى ممارسة أعمالهم وفتح محلاتهم التجارية بقوله " يا أمة محمد افتحوا الدكاكين فليس هناك من شيء، افتحوا الدكاكين ". لكن لم يكن هناك أي نتيجة. في حين أنّ أعداد العصاة بازدياد؛ حيث تجمعوا في ميدان الخيل.وتوجه آغا الانكشارية مع رجاله إلى الميدان للتحدث مع المتمردين فلم يجد منهم غير التهديد، حتى أنهم لم يراعوا كبر سنه. فتقدم منه باترونا خليل ووضح له أن هدفه من التمرد هو إصلاح الدولة والقضاء على الظالمين ومجازاتهم على أعمالهم. وعرض على آغا الانكشارية -رئيس الانكشارية- الانضمام اليه، فأراد

(92) Ahmet Refik, p. 92-93,Munir Aktepe,p. 126- 130, Uzuncarsili,c. 5. p. 204, Turkiye Diyanet Vakfi Ansiklopedisi ,cilt34. Patrona Isyani , Adulkadir Ozcan,189-190

(93) Ahmet Refik,p. 94-95, Munir Aktepe, p. 133-135, Abidi Tarihi,35-36, Uzuncarsili,c. 5,p. 204-205

آغا الانكشارية أن يرد عليه غير أن باترونا خليل قد هدده فأسكته. وفي أثناء ذلك انضم رجاله إلى المتمردين، وأما هو، فما أن أحسّ بكلّ ذلك حتى لاذ بالفرار[94].

وقام العصاة بإطلاق سراح المساجين والمجرمين، وقاموا بسلب ونهب مراكز السباهية، واستولوا على السلاح، ووضعوا تشكيلات جديدة لهم، وصاروا يتجولون في مختلف أحياء وشوارع اسطنبول معلنين أنهم لن يتعرضوا للناس، فعليهم ممارسة حياتهم وفتح محلاتهم التجارية. ويذكر أنه لم يتم الاعتداء على أي دكان، ولا حتى النصارى؛ لأن هدف العصاة كان زيادة أكبر عدد ممكن من المؤيدين لهم[95]. كذلك قام العصاة بسلب ونهب قصور الوزراء وكبار رجال الدولة، والاستيلاء على أموالهم وتسليمها إلى باترونا خليل، ولضمان عدم مساعدة النصارى لرجال كبارالدولة، أعاد إليهم أموالهم بقوله " هذهأموالكم التي سرقوها منكم "، وهرب النصارى إلى جزيرة بيوك أضه– جزيرة تركية بالقرب من مدينة اسطنبول-[96].

وعندما وصل خبر التمرد للسلطان أحمد الثالث وكبار رجال دولته، توجهوا على الفور إلى اسطنبول، وتعجبوا من تصرفات رجال الدولة إزاء التمرد الذي يتصف بعدم الاكتراث وعدم الجدية في مواجهتم للأزمة،في الوقت الذي كانت فيه أعداد العصاة قليلة ويفتقدون للتنظيم وكان من الممكن ايقاف خطرهم. فعبر عن ذلك الوزير الأعظم إبراهيم باشا قائلاً للسلطان أحمد الثالث: " فكيف لا يعاقب الذي جلب الخطر على حياتك وعلى السلطنة، فلو تم التحرك نحوهم وهم قلة لأمكن إيقاف خطرهم ". فأجابه السلطان: " هذا الكلام لم يعد منه فائدة الآن فقد مضى عليه الكثير من الوقت "[97].

وعلى وجه السرعة دعا السلطان أحمد الثالث لعقد الديوان السلطاني لإيجاد حلّ لهذه الأزمة، للخروج منها، فعرض الوزير الأعظم إبراهيم باشا على السلطان أحمد الثالث عدداً من الحلول، منها أن يخرج بنفسه ومعه مجموعة من الجند لتشتيت العصاة، غير أن السلطان لم يوافق على هذا العرض لعدم وجود العسكر الذي يتقن استخدام السلاح، في حين أن العصاة مسلحين. الحل الآخر الذي قدمه ربما ينقذ الدولة وينجح في القضاء على المتمردين وهو تكليف أحد أقوى القادة في القصر العثماني بالقضاء على العصاة ويدعى قبطان عابدى، لكن باترونا خليل تمكن من إقناعة بالانضمام إليه،وبذلك ازدادت قوة باترونا خليل أكثر[98].

لم يبق أمام السلطان أحمد الثالث حلٌ غير رفع الراية الشريفة– علم الدولة العثمانية- والخرقة الشريفة- البردة الخاصة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم -لاستمالة الناس للتجمع حوله لتفريق العصاة وتشتيتهم، إلا أن باترونا خليل عندما رأى الراية الشريفة والمنضمين حولها وحاول إبعادهم بتهديده لهم وإعطائهم الأموال ليمنع الناس من التجمع تحت الراية الشريفة، وبالفعل نجح في جذب كل من تجمع تحت الراية الشريفة للانضمام إليه.

وحاصر العصاة وعلى رأسهم باترونا خليل القصر العثماني، ولم يتمكن أحد من الخروج منه، فالناس في الشوارع وأحياء اسطنبول يتراكضون وكأنهم قد فقدوا عقولهم من شدة الخوف، كالعاصفة العنيفة التي هبت

(94) Ahmet Refik ,p. 95-96, Uzuncarsili,c. 5. p, 205, Munir Aktepe,p. 135-138, Abdi Tarihi,p. 30-31
(95) Ahmet Refik,p. 96,Munir Aktepe, p. 140-143
(96) Ahmet Refik,p. 102
(97) Ahmet Refik,p. 96-97,Munir Aktepe, p. 138-139
(98) Munir Aktepe,p. 138-140, Ahmet Refik,p. 97-98,101, Turkiye Diyanet Vakfi, cilt34,p. 190

على اسطنبول، وكان العصاة مثل السيل العارم يرتدون العمائم على رؤوسهم يدوسون بعضهم البعض، هذه الجموع الهائجة تصدت لكل من يقف في طريقها، فكان منظراً مرعباً تقشعر له الأبدان[99].

تلك الظروف المخيفة جعلت السلطان أحمد الثالث يفكر في التفاوض مع العصاة لمعرفة ما يريدون، فأرسل بستانجي حسكي آغا– كبير المكلفين بزراعة البساتين والجدائق في قصر السلطان-للتحدث معهم ، فأوضحوا أن هدفهم هو مصلحة وسلامة الدولة، وأنهم يريدونعرض مطالبهم على السلطان أحمد الثالث.وبعدها عرض قادة العصاة مطالبهم: بأنهم راضون عن السلطان أحمد الثالث، لكنهم طالبوا أن يُسلّم لهم الوزير الأعظم إبراهيم باشا وأصهاره ؛ قبطان الدريا، وقائمقام اسطنبول قيماق مصطفى باشا، وكتخدا الوزير الأعظم محمد باشا، وشيخ الإسلام عبدالله أفنديإضافة إلى37شخصاً لهم[100].

وأدرك السلطان أحمد الثالث أنه لايمكن فعل شيء إزاء هذه الظروف، وعليه وافق على تنفيذ أغلب مطالب العصاة، غير أنه أبدى عدم موافقته على قتل أي أحد من العلماء، وعدم اعتراضه على نفي الأشخاص الذين يريدونهم، والموافقة على رغبتهم في تعيين دلي إبراهيم من المدرسين منصب قاضي اسطنبول، وزلالي حسن أفندي قاضي عسكر الأناضول[101]وتم تنفيذ مطلب العصاة بالتخلص خنقاً من الوزير الأعظم إبراهيم باشا وبعض معاونيه[102].

وبناء على ذلك، ابدى السلطان رغبته بالتخلى عن العرش لصالح ابن أخيه محمود الأول بن مصطفى الثاني (1730-1754م)، مقابل الحفاظ على حياته وحياة أسرته. وأبدى العصاة موافقتهم على شروطه. ودعا السلطان أحمد الثالث ابن أخيه ولي العهد محمود وجعله يقبل يده، وتمت مراسيم جلوسه على العرش، واستدعى السلطان أحمد الثالث شيخ الإسلام وقاضي عسكر الروملي والأناضول ووضح لهم بأن العصاة لا يريدونه سلطاناً، وإزاء الأحداث المؤلمة التي تمر بها الدولة، وحقناً للدماء فأنه يتنازل عن العرش وبكامل إرادته لابن أخيه الشهزاده ـ لقب يُطلق على أبناء السلطان الحاكم وهي كلمة فارسية تعني بالعربية ابن الملك ـ محمود الأول. ونصحه بأن لا يترك إدارة الدولة في يد الوزير الأعظم وأن يكون دائما تحت نظره، وأن يكون رحيماً عادلاً، وأن لا يثق بأحد ولا يترك إدارة الدولة لغيره، وحذره بأن لا يرتكب الأخطاء التي ارتكبها هو، والتي أضرت بخزينة الدولة[103].

وفي عهد السلطان محمود الأول استمر العصاة في إدارة الدولة، وأعاد باترونا خليل تعيين أصدقائه وأقربائه في المناصب العليا، وبدؤوا ينشرون الرعب في اسطنبول، لكن ذلك لم يستمر سوى فترة قصيرة، حيث تم القضاء على باترونا خليل واتباعه بعد تولي السلطان الحكم بفترة قصيرة،وتم تدمير أغلب القصور

(99) Abidi Tarihi, p. 37-38 ,Munir Aktepe,p. 139-140,Ahmet Refik,p. 99-100,Yasar Yucel,lll. p. 291-292 ,Uzuncarsili,c. 5. p. 205-206

(100) Munir Aktepe, p. 144, Abidi Tarihi, p. 37-38, turkiyediyanetvakfi ؛Ahmet Refik, p. 98-100, Yasar Yucel,lll. p. 292 ,cilt34. p. 190

(101) Yasar Yucel,lll. P. 292, Ahmet Refik, p. 102-103

(102) ؛Munir Aktepe, 150-152,155 ؛Abidi Tarihi,p. 38-39 ؛ Ahmet Refik, p. 104, -105, Turkiye Diyanet vakfi,cilt34. p. 190 Uzuncarsili,c. 5. p. 206, 207, 208, 210

(103) Abidi Tarihi,p. 40-42, Munir Aktepe, p. 153-156, Ahmet Refik, p. 104-105, Uzuncarsili,c. 5. p. 210-211, Yasar Yucel, lll. P. 292-293

والأبنية التي بنيت في فترة السلطان أحمد الثالث، غير أن السلطان محمود الأول لم ير ذلك مناسباً، فقد حول ما بقي منها إلى مدارس عسكرية حربية[104].

الخاتمة

من خلال ما سبق يمكننا التوصل إلى النتائج الآتية :-

اولاً) يمكن القول أن الدولة العثمانية كانت تعاني من مشكلة، وباعتقادنا تتمثل هذه المشكلة بعدم إدراك التراجع المستمر أو الخلل في مؤسساتها بالمقارنة مع أوروبا، ولقد استغرق العثمانيون وقتاً لاستعاب وضعهم والأخطار المحيطة بهم. وأخذت تتجه نحو إجراء التغيير، والطريقة الوحيدة لذلك هي تحقيق سياسة السلام ومد جسور مع عواصم أوروبا وتقليد حياتها وعمرانها. غير أن هذا الإجراء لم يكن بوعى وإدراك، بل كان يتعلق بمظاهر التقدم الأوروبي دون إدراك المغزى من هذا التقدم. ومن الخطأ - من وجهة نظرنا- أن نطلق مفاهيم مثل النهضة أو الصحوة على معظم الإنجازات أو الإصلاحات التي قام بها السلطان أحمد الثالث في بداية القرن الثامن عشر الميلادي، حيث أنها كانت توصف بالسطحية، ولم تكن جذرية لتحسين مؤسسات الدولة وتشكيلاتها في الدولة العثمانية. كما إن هذه الاصلاحات واجهت بمقاومة من رجال الدين لما راوا فيها من مخالفة لاحكام الشرع.

ثانياً) امتاز هذا العصر بالحركة الفكرية والثقافية الواسعة حيث تبارى الشعراء في وصف الزنابق، وسمّي بعضهم بأسمائها. كما لم يكن افتتاح المطبعة بالأمر السهل، فقد استلزم سلسلة من التحضيرات لإقناع المسؤولين ، ومن بينهم شيخ الإسلام ورجال الدين، بفائدة إقامة مطبعة في البلاد العثمانية، ولم يصدر الفرمان بافتتاح المطبعة إلا بعد موافقة شيخ الإسلام الذي اشترط عدم طباعة الكتب الدينية بكل فروعها.

ثالثاً) تردّت الأوضاع في الدولة العثمانية على الصعيدين الداخلي والخارجي، فأما على الصعيد الداخلي فقدكانتتوصف بالسيئة مثل تردى مؤسسات الدولة، والفقر، والبطالة، واضطرابات في قيمة العملة العثمانية، وتراجعت في أحوال الزراعة؛ حيث أجبر الكثير من الفلاحين على ترك أراضيهم والتوجه إلى المدن وبالأخص اسطنبول، مما أخل بالتوازن السكاني وأدى ذلك إلى الازدحام بشكل لافت للنظر.

وعلى الصعيد الخارجي، فقدت الدولة العثمانية أراضيها، وأحرز الروس والنمسا انتصارات واضحة أدت إلى انحسار حدودها، وتحولت الدولة العثمانية من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع، ويرمز القرن 18م/12هـ في تاريخ الدولة العثمانية إلى البداية الحقيقية لهجوم الدول الأوروبية الكبرى عليها في مختلف المجالات.

رابعاً) يتضح أيضا تراجع أهمية الانكشارية من حيث كفاءتهم القتالية، وشجاعتهم المميزة، وكثرتهم العددية، بعد أن كانوا يشكلون ثقلاً كبيراً لمصلحة الدولة العثمانية في الحروب.

ثم غدت الانكشارية مركز قوة خطير في الدولة، وذلك حين استشرى نفوذهم وازدادوا إدراكاً لأهميتهم ومقدرتهم القتالية، وأخذوا يتدخلون في السياسة العليا للدولة، وهي أمور ليست من اختصاصاتهم، فأصبحوا

[104] Ahmet Refik, p. 113-116 ؛Munir Aktepe,p. 173-177

يتدخلون في عزل وتنصيب السلاطين والوزراء ويقتلون بعضهم، ورأينا تطاول الانكشارية على السلطان أحمد الثالث نفسه حيث عزلوه من منصبه، ونصبوا ابن أخيه السلطان محمود الأول. وكذلك الطريقة البشعة التي تم بها التعامل مع جسد الوزير الأعظم إبراهيم باشا.

والشيء ربما الذي يلفت الانتباه أن ثورة باترونا خليل على الرغم من الانتصار الذي حققته، لم يفكر الانكشارية بتغيير السلطة الحاكمة في الدولة العثمانية.

خامساً) يمكننا أن نعتبر فترة حكم السلطان أحمد الثالث (1703م - 1730م)، وبالاخص عصر الزنابق (1718-1730م) أول نهضة أدبية في الحياة العثمانية وشيوع ما يسمى (بأدب اللاله)، فقد تشكلت في القصر نفسه مجموعة من الشعراء والعلماء رعاها السلطان ووزيره. كذلك يمكن أن نعتبر أن عهد السلطان أحمد الثالث هو أول عهد يشهد تجديداً تحت تأثير التقدم الأوروبي، في محاولة لاكتساب وتمثل منجزات هذا التقدم.

بالرغم من هذه النهاية المأساوية لعهد السلطان أحمد، فإن محاولات التجديد والإصلاح لم تتوقف، وتتابعت في عهد السلطان محمود الأول (1730م - 1754م)، الذي كان مقتنعاً بضرورة إجراء التجديد والإصلاح في مؤسسات الدولة وتشكيلاتها. فأصبحت مسألة التحديث أمراً لا بد منه.

المصادر والمراجع

اولاً) باللغة العربية:

- أزوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية،م1، ترجمة عدنان محمود سليمان، مؤسسة فيصل، اسطنبول، 1988.
- آصاف، يوسف، سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار البصائر، دمشق، 1985.
- أورطايلي، إيلبير أورطايلي، العثمانيون في ثلاث قارات، ترجمة عبدالقادر عبد اللي عبد القادر، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2014.
- إينالجيك، خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الإنحدار، ترجمة د.محمد. م. الأرناؤوط، دار المدارالإسلامي، 2002.
- جودت، أحمد جودت باشا ت 1895م، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي، المجلد الأول، مطبعة جريدة بيروت، 1308.
- زيادة، خالد، اكتشاف التقدم الأوروبي " دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، دار الطليعة، بيروت، 1981.
- شرف، عبد الرحمن شرف، تاريخ دولت عثمانية، جلد 1، مطبعة باب عالي، اسطنبول.

صابان،سهيل،المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة د. عبدالرازق محمد بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م.

طقوش، محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة الى الأنقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، 2013.
العريض، وليد، تاريخ الدولة العثمانية، " التاريخ السياسي والاداري ودراسات تاريخية، دار الفكر، عمان، 2012.

ـ فريد بك، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009 .

مانتران، روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1993.

ـ محمود، سيد محمد السيد، تاريخ الدولة العثمانية " النشأة والأزدهار وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة " مكتبة الآداب، القاهرة، 2007.

مصطفى، سيد مصطفى، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر "نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطنيية "، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1979.

ثانياً) باللغة التركية:

Abdi , Abdi effendi , Abdi Tarihi”1730 Patrona İhtilali , Bir Eser,Yayin Faik Resit Unat, Turk Tarih Kurumu , Ankara , 1943.

Aktepe, Munir Aktepe , Patrona Isyani 1730, Edebiyet Fakultesi , Istanbul , 1958.

Hakki Verdi , Metin Hakki Verdi, Nevsehirli Damat Ibrahim Pasa Yazilan lale Devri, Ankara, 2012.

Islamoglu, Mustafa Islamoglu , Serden gectiler hareketi 1730, genge yayinlari , Istanbul , 1991.

Motagu, Lady Motagu, Sark Mektuplari, timas, Istanbul, 1998.

Refik, Ahmet Refik, Lale DEVRI, Altinci Baski ,Tarih yayinlari , Istanbul.

Uzun Carsili , Ismail Hakki Uzun Carsili, Osmanli Tarihi, XV. Yuzyil ortalarindan XVII,Yuzyil sonuna kadar , Turk Tarih Kurumu , Ankara, 1982.

Ulucay, M.cagatay Ulucay , Padisahlarin Kadinlari ve Kizlari, Turk Tarih Kurumu, 2001.

Yucel , Yasar Yucel-Ali Sevim , Turkiye Tarihi Osmanli Donemi 1566- 1730 , c.3. , Turk Tarih Kurumu , Ankara , 1991.

Adulkadir Ozcan , Patrona Isyani, Turkiye Diyanet Vakfi Ansiklopedisi, cilt:34, p. 189-192.

H. Mustafa Eravci, Ilker Kiremit, Lale Donemi ve Patrona Halil Isyani Uzerine Yeni Degelendirmeler, Tarih Okulu , Eylul- Aralik 2010, sayi, VIII, P. 79-93